العنوان:	معركة عين جالوت
المصدر:	الوعي الإسلامي
الناشر:	وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية
المؤلف الرئيسي:	عثمان، أمين محمد
المجلد/العدد:	ع 340
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1994
الشهر:	ذو الحجة / مايو
الصفحات:	72 - 75
رقم MD:	444112
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	التتار، الجيش المصري ، معركة عين جالوت ، الظاهر بيبرس ، بيبرس العلائلي البندقداري الصالحي ، ت 676 هـ
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/444112

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

معركة عين جالوت

للأستاذ: أمين محمد عثمان



في أوائل القرن السابع الهجري انحدرت جيوش التتار بقيادة (جنكيز خان) سفاح الشعوب في الشمال الشرقي لقارة آسيا، وعبروا نهر (سيحون) ودمروا في هجومهم الأول مدينة (بخاري) في عام ٦١٦هـ ثم اتجهوا إلى (سمرقند) فدخلوها وأفنوا من فيها. ودمروا وأحرقوا بعد ذلك كل مدينة صادفوها!

في أوائل القرن السابع الهجري انحدرت جيوش التتار بقيادة (جنكيز خان) سفاح الشعوب في الشمال الشرقي لقارة آسيا، وعبروا نهر (سيحون) ودمروا في هجومهم الأول مدينة (بخاري) في عام ٦١٦هـ ثم اتجهوا إلى (سمرقند) فدخلوها وأفنوا من فيها. ودمروا وأحرقوا بعد ذلك كل مدينة صادفوها!

جاء في مجلة (المعرفة)؛ وهي مجلة عالمية تنشر في (جنيف) بسويسرا؛ ويشرف عليها هيئة من كبار العلماء في (أوربا) وتترجم إلى اللغة العربية.

لقد بدا أنه مامن احد كانت لديه القدرة على الكافية لمقاومة هؤلاء الرجال القصار الاشداء الذين كانوا يقاتلون كالأبالسة، والذين لم يكونوا يعرفون قط، معنى الكلال ولايظهرون ادني رحمة، ومع مرور الوقت بلغ الفزع من اسمهم حداً جعل لهم قوة السحر المغناطيسية، على أعدائهم، حتى كانت كل إرادة عندهم للمقاومة تنهار. وكانوا ينتظرون الموت مستسلمين كالاغنام للذبح!

ثم تقول المجلة:

(وكان التتار يعتمدون في طعامهم اساسا على صيد الحيوانات، وعندما كانوا يقتلون أي شيء؛ (كالأيل) مثلا؛ كانو يلتهمون الحيوان كله نيئا، بما في ذلك الأجزاء الكريهة منه. وكان الحصان هو حيوانهم الرئيسي، ولبن الفرس هو طعامهم المفضل. عندما كان يتم تخمير هذا اللبن، فإنه يتحول إلى مسكر قوي. وفي الحفلات كانوا يشربوا من جماجم قتلى الأعداء).

سقوط دولة فارس

لقد استطاع التتار ان يعبروا نهر ـ (جيحون) وان يدخلوا مدينة (نيسابور) ثم اتجهوا نحو مدينة (الري) فدمروها وأحرقوها. وقتلوا جميع من فيها، وكذلك فعلوا بمدينة (تبريز) وأذربيجان ومراغة.

موجات متتالية واعصار مدمر، وهمجية متوحشة، لايعصمها دين، ولاتلين قناتها انسانية، ولا تعرف الرحمة إلى قلبها سبيلا!

وهكذا سقطت دولة (فارس) الاسلامية؛ درة الشرق وغرة العالم الاسلامي. وأصارح القاريء بان القلم كان يهتز في يدي من الانفعال وانا اسطر هذه الحوادث الرهيبة. لقد استبيحت حرمات المسلمين إلى درجة، جعلت (جلال الدين) ملك فارس (خوارزم شاه) بفضل وهو يحاول النجاة بنفسه ان يقضي على زوجته وامه واخواته وبناته، بالغرق في النهر، حتى لايلحقهم عار الابد، وذل الاسر، واستباحة الشرف والعرض.

لقد دب الخوف والفزع، واستولى الرعب على قلوب المسلمين، بسبب ترفهم وانصرافهم عن تعاليم دينهم، وحقت عليهم كلمة الله، وقانون الحياة الذي لايخطيء كما يقول سبحانه: ﴿وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء:١٦].

عقدة التتار

لقد ابتلى الله العالم الاسلامي (بعقدة التتار) ودخل في قلوب الشعوب ان التتار شعب لايقهر، وانهم قضاء وقدر، ولامفر من قضاء الله وقدره، إلا بالتسليم والاستسلام، وهكذا.

يقضي على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

ماتكاد المدينة تسمع ان التتار، قد اصبحوا منها على مسيرة شهر حتى يهجرها رجالها والمدافعون عنها، تاركين الضعفاء والمرضى لرحمة الاقدار. يقول (أبو الفداء) في تاريخه (البداية والنهاية):

(إن الجندي الأعزل من جنود التتار، كان يدخل على المائة من جنود أعدائه، وهم مدججون بالسلاح، كما يدخل الذئب على قطيع من الغنم، فيشل تفكيرهم دون ان يقاموا، أو يفكروا في النجاة بأنفسهم، وهكذا يستطيع ان يفتك بهم واحدا واحدا وهم مستسلمون قانطون).

الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى

أورد المؤرخ (ابن الأثير) في كتابه (الكامل) خبر التتار، وبسطه بسطا مفصلا، وقدم على ذلك فصلا هائلا في وصف هذا الخطب المريع فقال:

(هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين. فلو قال قائل: ان العالم منذ خلق الله آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فان التاريخ لم يتضمن ما يماثلها أو يدانيها، ومن اعظم مايذكرون من الحوادث مافعل (بخت نصر) ملك (بابل) ببني اسرائيل، من القتل وتخريب (بيت المقدس) ومابيت المقدس، بالنسبة لما خرب هؤلاء التتار الملاعين من البلاد، التي كل من فيها، اضعاف (بيت المقدس) ومابنو اسرائيل بالنسبة لما قتلوا؟

فإن اهل مدينة واحدة ممن قتلوا اكثر من بني اسرائيل، ولعل الخلائق لايرون مثل هذه الحادثة إلى ان ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، واما (الدجال) فإنه يبقي على من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء الملاعين لم يبقوا على احد، بل قتلوا الرجال والنساء والاطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة. فإنا لله وانا اليه راجعون).

رحم الله (ابن الأثير) صاحب (الكامل)ولست ادري لو انه شاهد ما يفعله الصربيون بمسلمي (البوسنة والهرسك) وهي لاتقل بشاعة وفظاعة عما كان يفعله التتار على مرأى ومسمع من العالم المتحضر فماذا كان يقول؟

ثم يسترسل (ابن الاثير) فيسجل هذه العبارة، مؤكدا صحة مايرويه المؤرخون عن التتار فيقول: (والله لا أشك ان من يجيء بعدنا إذا بعد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة سوف ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر اننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت يعلم كل من فيه هذه الحادثة، فقد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للإسلام والمسلمين من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى امر عظيم، كما دفعوا من ملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه).

الخيانة وسقوط بغداد

أما كيف سقطت (بغداد) في أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ، فاننا نترك الحديث للمؤرخ (جمال الدين؛ أبي المحاسن بن تغري بردى) في كتابه (النجوم الزاهرة) ليقول:

(نذكر لك سبب أخذ (هولاكو) قائد التتار لبغداد فنقول: ان (هولاكو) وقيل (هلاوون) بن تولي خان بن (جنكيزخان) ولي الملك بعد أبيه، واتسعت ممالكه، وعظم أمره وكثرت جيوشه من (المغول التتار) ولا زال أمره في زيادة، حتى ملك مدينة (الموت) وهي قلعة حصينة مقر (شيخ الجبل) استعصت على أي فاتح حتى دمرها التتار.

وكان وزير الخليفة (المستعصم بالله العباسي) هو (مؤيد الدين ابن العلقمي) ببغداد، وكان رافضيا خبيثا، حريصا على زوال الدولة العباسية، ونقل الخلافة إلى (العلويين) يبدو ذلك في الباطن، ويظهر

معركة عين جالوت

للخليفة المستعصم خلاف ذلك، ولايزال يثير الفتن بين اهل السنـــة والـــرافضـــة حتى تضاربـوا بالسيوف، وكان الخليفـة السابق (المستنصربالله) قد استكثـر من الجند قبل موته حتى بلغ عسكره ألف مقاتل.

وكـان الـــوزيـــر (ابـن العلقمي) مع ذلك يصـــانع التتـــار في البـــاطـن ويـــراسلهم ويهاديهم، فلما استخلف (المعتصم بـالله) بعـد مـــوت أبيـــه (المستنصر)، وكـــان (المستعصم بالله) خاليـا من الرأي والتدبير، فأشـار عليـه (ابن العلقمي) المذكـور بقطع ارزاق اكثر الجنـود، وانه بمصـانعة التتـار وإكـرامهم، يحصل بـذلك المراد، ولاحـاجـة لكثرة الجنود، ففعل الخليفة ذلك.

ثم ان الـوزيـر بعـد ذلك كـاتب التتـار، وأطمعهم في البلاد سرا، وأرسل اليهم غـلامه واخـــاه، وسهّـل عليهم فتـح العـــراق، واخذالعاصمـة بغداد، وطلب منهم ان يكون نـائبهم على البلاد فـوعـدوه بذلك. وتأهبـوا لقصـد بغـداد، وكـاتبوا (لـؤلـؤا) صـاحب الموصل وتهيئـة الإقامـات والسـلاح. ولكن (لؤلـؤاً) كان وطنيا مخلصا، فكـاتب الخليفة سرا، وحـــذره. ولكن الـوزيـــر الخائن (ابن العلقمي) لم يكن لأحد معه كلام في تدبير امر الخليفـة فصار لايـوصل مكاتبـات (لؤلـؤ) وغيره إلى الخليفة.

وقصد (هولاكـو) بغداد، من البر الشرقي، وضرب سورا وخنـدقا على عسكـره، وأحاط ببغـداد فأشار الـوزيـر (ابن العلقمي) على الخليفة (المستعصم) بمصانعتهـم وقال له: يـا أمير المؤمنين، اخـرج اليهم انا في تقـريـر الصلح. فخـرج اليهـم، واجتمع (بهولاكـو) وتوثق لنفســه ثم رجع إلى الخليفة وقـال له: ان الملك (هـولاكـو) قـــد رغب في ان يـزوج (بنتـه) بابنك الامير (أبي بكـر) ويبقيك على منصبك في الخلافة، كما ابقى صاحب الروم في سلطنتـه، وأرى ان تجيبه يـامولانـا أمير المؤمنين لهذا، فإن فيه حقـن دماء المسلمين، ويمكن ان تفعل بعد ذلك ماتـريد، والرأي ان تخرج اليـه. فاستمع الخليفـة له وخـرج إلى التتـــار في جمع من الاعيـان مـن اقـاربـــه وحواشيه وغيرهم، فلما تـوجه إلى (هولاكو) لم يجتمع بـه، بل انـزلـه في خيمـة. ثم ركب الوزيـر وعاد إلى بغـداد بإذن من (هـولاكو) واستـــدعى الفقهـــاء والأعيـــان والأمـــاثل ليحضروا عقـد زواج الأميرة (بنت هولاكـو) على (ابن الخليفة) فخرجـوا من بغداد، فأمر (هـولاكـــو) بضرب اعنقـاهم جميعـا، امـا الخليفـة فقـد وضع في غـرارة. ثـم أخـذوا يـرفســونـه بـالأقـدام حتـى مـات. ثم ان (هولاكو) مد الجسر، ودخل بجيوشه بغداد، وبذلـوا السيف فيها، واستمـر القتل والنهب والسبي في (بغداد) بضعة وثلاثين يوما، فلم ينج منهم الا من اختفى. وأمر (هولاكو) بعدّ القتلى فبلغـوا مليـونـا وثمانمائة الف. ولكن (المؤرخ الذهبي) في كتابـه (تاريخ الاسلام) يذهب إلى ان الاصح انهم بلغو ثمانمائة الف. واما الوزير الخائن (ابن العلقمي) فلم يتم له مـا أراد، ولم يكن يعتقـد ان التتار يبـذلـون السيف مطلقـا في أهل السنة من أعـدائه، وفي الـرافضـة من اهـل شيعتـه معـا، وراح مع الطـائفتين امم لا تحصـى من الكثـرة، وذاق (ابن العلقمي) الهوان والـذل من التتـار. ولم تطل ايـامه بعد ذلـك إلا قليلا ﴿ خسر الدنيا والآخـــرة ذلـك هـــو الخسران المبين ﴾ [الحج:١١].

أضواء على الحوادث

وانقضت الخلافـة العباسيـة من بغـداد،

أجمع المؤرخون على ان السبب في سقوط بغداد بأيدي التتار الاستهانة بتعاليم الدين

وزالت من تلك البـــلاد، وخـربـت (بغـداد) الخراب العظيم، واحرقت كتب العلم التى بها، وكان بها من سـائر العلوم والفنـون التي ما كان في الدنيا مثلها، قيل انهم بنوا بهذه الكتب جسرا من الطين والماء عـــوضـا عن الآجـــر، وقيل: إن هـــولاكـــوا امـــر بجمـع الكتب الإسلامية فألقيت في نهر دجلة، وكانت تضم أعظم تراث العالم في ماضيه وحاضره.

وقد أجمع المؤرخون على ان السبب في هذه النكبة هو الغفلة والخيانة والترف والاستهانة بتعاليم الـدين، ﴿ وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [هود:١١٧].

ولازلت في دهشـة وانـا اقرأ عبـارة وردت (لابن كثير) في كتابه (البداية والنهاية) ولازال صداها يتردد في نفسي حيث يقول:

(وأحـاطت التتار بـدار الخلافـة يرشقـونها بـالنبال من كل جـانب حتى اصيبت جاريـة كـانت تلعب بين يـدي الخليفـة وتضحكـه، وكـانت من جملـة حظاياه، وكـانت مولـدة تسمى (عزقة) جاءها سهم من بين الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعا شديدا).

ومـاذا يقـــول المرء في قـائد أعلى يحاصره الأعداء من كل جـانب، وهو يتلهى بـراقصة من جواريه وقـد اغمض عينيه، وأصم أذنيه، وجعل بينـه وبين الحواد ث الجارية حجـابا مستورا؟! أين هـذا من قول الشاعـر العربي يصف المسلمين في فجر الإسلام:

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت بأطهار

لقد أهمل الخليفة امر (هولاكو) حتى كان في ذلك هلاكه، وشغـرت الخلافة بعده سنين وبقيت الـدنيـا بـلا خليفـة حتى اقـام الملك الظاهر (بيبرس) بعض بنـي العباس ليكون خليفة في القاهرة.

النصر بعد اليأس

كـان الإعصـار الأصفـر، يكتسح الـدول والممالك اكتسـاحـا، وكـان الفـارون امـام جيـوش (هولاكـو) وقوة التتـار يلجأون إلى القاهرة، وكان موعد اللقاء الذي لا بد منه بين المصريين والتتـار قـد اقترب، بعد الإطـاحـة بعرش (بغداد).

وفي هذه الأيام، كانت الروح المعنوية لدى المصرين عالية جدا بعد هزيمة الصليبيين في (المنصورة) عام (١٢٥٣) وأسر (لويس التاسع)، ملك فرنسا ففكر القائد العام للجيش المصري (بيبرس) في أن تزويد الشعب باللياقة البدنية، إلى جانب الروح المعنوية، كفيل بهزيمة التتار. فوضع سياسته العسكرية، على أساس الرياضة البدنية، وزاد من اهتمامه بتدريب الشباب في الساحات الشعبية واشترك هو و(المظفر قطز)؛ أمير البلاد؛ في وضع خطة مدروسة لملاقاة التتار، وعكفوا على دراسة خطط (التتار) الجريئة، وكان مصدر قوتهم انهم يقاتلون وهم على ظهور خيولهم، ثم يعتمدون على سرعة تجمعهم امام جزء ضعيف من جبهة عدوهم، ثم يهجمون بعنف على هذا الجزء كأنهم عاصفة من السماء تثير الرعب في الخصم فينهار.

وكانت الصعوبة في مواجهة هذه العاصفة التترية، انه لم يكن من اليسير على أي شعب ان يقلدها. لان اسلوبهم هذا في القتال يتفق مع طبيعة حياتهم العادية، من ركوب الخيل باستمرار، وقتال دائم، ومعيشة في الخلاء، وتحرك مستمر لايهدأ، وكان القوس الذي يستعلمونه اصلب قوس في هذا العصر، ويحتاج ستعماله إلى قوة بدنية كبيرة ودراية خاصة فكيف فكر القائد (بيبرس)؟ أدرك (بيبرس) ان شر خطورة المحارب التتري هو بقاؤه على سرج جواده، وخفته وضراواته. وادرك انه لابد من هزيمة التتار بنفس اسلوبهم، كما أدرك انه من العسير ان يحوّل كل المحاربين المصريين، ومعظمهم من الصعايدة والفلاحين إلى (ركبدارية) مهرة أي (ركاب خيل). فقرر خطته وقوامها، إنزال التتار عن خيولهم والالتحام بهم يدا بيد على الارض، وإعداد الشعب بدنيا لهذه الملحمة عن طريق الرياضة البدنية.

معركة عين جالوت

بدأ الاستعداد لملاقاة التتار وصدرت الاوامر بتجهيز الشعب للقتال واصدر القائد اوامره بزيادة الساحات الشعبية إلى جانب ميدان التدريب العسكري، مع التركيز على الالعاب التي تنمي العضلات، ولا سيما الأكتاف والذراع، بما يؤهلها لشد القوس

■ تلخّصت خطة قطز بتقوية الجندي المسلم روحياً وجسدياً وفنياً

الثقيل الذي اخترع واعد لمحاربة (التتار) ثم العناية بالمصارعة تمهيدا للاشتباك مع العدو الرهيب، وبالتركيز على ألعاب القوى لتحمل مشاق الميدان.

ومرت سنتان، وذات يوم لاح في الأفق عشر فوارس من فرسان القتال جاؤوا بإنذار من قائدهم بالتسليم. واستشار رئيس الدولة (المظفر قطز) مجلس الحرب، وكان رد مصر هو الرد الحقيقي، الجدير بشعب عريق.. ضربت أعناق ثمانية من فرسان التتار العشرة ما عدا فارسين، وعلقت جثتهم على (باب زويلة)، وحمل الفارسان رؤس زملائهما إلى قائدهم المغرور (كتبغا).

وخرج الجيش المصري للقاء العدو، وبدأت معركة (عين جالوت) في صباح الجمعة الخامس عشر من شهر رمضان عام ٦٥٨هـ وهي توافق اليوم التالي من ديسمبر (كانون الأول) عام ١٢٦٠م، وهي واحدة من أهم المعارك الحاسمة في تاريخ العالم.

وبدأت المعركة؛ كما توقعت القيادة المصرية؛ بهجوم شديد مكثف للتتار، تحت عاصفة من السهام على يسار الجبهة المصرية، وكان المصريون يحملون دروعا كاملة لأول مرة اتقاء للسهام، إلا انهم تنفيذا للخطة التى استعاروها من التتار انفسهم، تظاهروا بالأنكسار والفرار تاركين ثغرة كبيرة في خط القتال المصري واندفع التتار بجيادهم من هذه الثغرة بقوة وعنف كالسيل الجارف. وتركهم المصريون حتى أوغلوا راكبين، ثم أطبق عليهم الجناحين المصريان بقوة، وانهالت عليهم السهام المصرية، وأجحار المقاليع.

ثم قام الفرسان بحملات هائلة لدفع اندفاع التتار، وفي هذه اللحظة ظهرت الإشارة المتفق عليها فبدأت عشرات الطبول والنقرزانات تدق وتعزف بعنف، فأطبق المصريون من كل اتجاه وحاصروا التتار الذين اخذت خيولهم تجمح بفعل السهام والأجحار المطلقة من المقاليع، فترجلوا وكان هذا ماتبغيه القيادة المصرية، اذ بدأ القتال الرهيب يدا بيد.

وفقد التتار مزيتهم في إجادة القتال الراكب، وكان المصريون قد أعدّوا إعداد كاملا، واكتسبوا مهارات حركية بالرياضة بجانب التدريب العسكري على اجهزتم الحربية الجديدة والثقيلة، ودروعهم الكاملة.

وما ان انتصف النهار حتى رفع احد الجنود المصريين رأس (كتبغا) قائد التتار على سنان رمحه حتى يراها الفريقان، وما ان شاهدها التتار حتى فترت عزائمهم وفروا لأول مرة في تاريخ حروبهم وأصبحوا فلولا تم تطهيرها بسرعة. واتبع الامير (بيبرس) وجماعة الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى ان وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم، ويطلقون الاسارى من أيديهم.

وانتهت معركة عين جالوت بفوز الجيش المصري الباهر، الذي اوقف زحف التتار على الشرق الاوسط، كما أوقف زحفهم على (أوروبا).

لقد كان التتار كابوسا رهيبا، وشبحا مخيفا ظل ينشر ظله الأسود على الشعوب، ثم انجابت غياهبه وانحسرت موجاته العاتية على يد (الجيش المصري).

لقد حدث شرخ ثم تصدع، ثم انهيار، في جدار الوهم، وانحلت عقدة الخوف التي رانت على قلوب المسلمين، منذ سنين. ولقد حمت مصر العروبة والإسلام، بل حمت الحضارة العالمية من خطر ماحق كاد يذهب بها وبالعالم إلى قرار سحيق ﴿ولينصرنّ اللهُ من ينصره إنّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] ■